على ظهر طائر الفينيق

للبحث عن جذور اليوتوبيا في الفكر الإنساني

تأمّلات في كتاب اليوم الموعود

د. ربيع مزهر محمود

مُلخَّص البحث

يحاول هذا البحث أنْ يتعمّق في الأفكار الماركسيّة التي عرضها السيّد محمّد الصدر وناقشها في كتابه اليوم الموعود. يخلص البحث إلى أنَّ الأفكار الماركسيّة، وخصوصاً ما يتعلّق منها باليوتوبيا، أو فكرة إقامة الحكومة النهائيّة في نهاية التاريخ، ما هي إلّا اقتباسات وسرقات فكريّة لأفكار باطنيّة وغنوصيّة قديمة، ومعروفة لأهل الإختصاص. إنَّ الديالكتيك الماركسي، والتحوّل الاجتماعي من حالة إلى حالة مختلفة، والماديّة التاريخيّة، والحتميّة وكلّ الطروحات الاخرى، ليست أصيلة أبداً، وهذا يعني: أنَّ كلّ البناء الماركسي الفوقي من طرح اجتماعي، أو نظريّات سياسيّة ليست أصيلة أيضاً، وما الماركسيّة إلّا مجموعة اقتباسات لأفكار غنوصيّة قديمة أظهرت الإلحاد، والابتعاد عن الدين والميتافيزيقيا، اخفاءً لوجهها الحقيقي المغرق في كلّ ما هو باطني وغنوصي. البحث اعتمد على المقارنة بين الطروحات الماركسيّة، وبين الأفكار الغنوصيّة المجرّدة، ليكشف للقاريء مباشرة الانطباق الواضح بينهما. يناقش البحث أيضاً الجذور الغنوصيّة لكلّ الطروحات الفكريّة التي بشرت بإقامة دولة عادلة أو مدينة فاضلة في نهاية الزمان، سواء منها الطروحات ذات الطابع الديني كالاسلام واليهوديّة، أو ذات الطابع المادي كالماركسيّة. البحث ناقش أيضاً موضوع الوعي باختصار من جهة علاقته باليوتوبيا، وبالبحث عن معنى للوجود الإنساني وغايته.

الكلمات المفتاحية: اليوتوبيا، الماركسيّة، كابالا، خيمياء، الديالكتيك، التطوّر، الغنوص، اليوم الموعود.

المقدّمة

وأنـا أطالـع كتـاب «اليوم الموعـود» تسـلّلت إلى مخيلتـي صورة السـندباد، وهـو يمتطـي ظهـر طائـر الفينيق محلقـاً فـوق وادي الغيلان، باحثـاً عـن جـذور نبتـة الحيـاة، أو حجـر الفلاسـفة المانـح للخلـود. والحقيقـة: إنَّ تاريـخ الإنسـان الفكري، وخصوصاً أفـكار يوم الخلاص، والحضـارة الخاتمـة، تجلّيـات اليوتوبيـا الأخـرى كلّهـا لا تبتعـد كثيـراً عـن هذه الصـورة الفانتازيّـة إذا ما عرفنـا أنَّ الفينيق المقصـود (العنقاء) هـو الوعي البشـري ثلاثي الرؤوس (حسّـي، وحدسـي، وعقلي) والذي يُرمـز له بريشـات ثلاث تنسـدل من فـوق رأس هذا الطائر الأسـطوري علـى رقبته.

الوعـي الإنسـاني- الـذي سـنتعمق بتفاصيله في متن هـذا البحث - مركّـب، صعـب، خطـر، مشـابه حقّاً لهـذا الفينيق، إذ إنّه قـد يقتل من لا يجيـد امتطـاءه، لكنّـه يبقـى المركّـب الوحيـد الـذي يؤهّل السـندباد (وهـو الانسـان المفكّـر ذو الوعـي) لأن يخـوض الصحـاري والقفـار باحثـاً عـن المعنـى والغايـة مـن وجـوده، والتي هـي حقّاً نبتـة الخلود، وحجر الفلاسـفة.

إذن، نحـن أمـام ثنائيّـة مـن نوع خـاص، ثنائيـة الوعـي والمعنى، إذ مـا أنْ يظهـر الأوّل إلّا اسـتلزم البحـث عـن الثاني. هـذا البحث الذي دائمـا ما يسـتبطن الخطورة والحـزن، والغربة، والشـقاء، أو حتّى الهلاك فـي أغلـب الاحيـان. إنّ طروحـات اليوتوبيـا كلّها، سـواء منهـا الدينية، مثـل فكرة المدينـة الفاضلـة، أو الحضارة العادلة للإسـلام والمسـيحيّة،

أم المادّيّة كفكرة المجتمع الشيوعي الكامل التي طرحتها الماركسيّة، تنطلق من جذر واحد، وهو البحث عن المعنى، والغاية من الوجود، وعدم الرضا بالحياة الحيوانيّة المادّيّة وغير الهادفة، وهي فكرة تستلزم ـ حتماً ـ وجود نوع عالٍ من الوعي المتمثّل بالوعي الانساني.

في كتاب اليوم الموعود انموذجان عن تجربتين في امتطاء الفينيق، واحدة منهما انتهت بالهلاك والكارثة، إذ إنَّ سندبادها لم يتمسك كما يجب، فكان سقوطه مدويّاً وهلاكه محتومّاً. التجربة الأخرى لمّا تكتمل بعد، لكن يبدو أنَّ سندبادها يتمسّك جيّداً بريشات الفينيق، ويعرف استخدامها بمهارة. هو ينظر إلى الأفق ببصيرة حادّة، وها هو قد بدأ يرى من بعيد أسوار مدينة الزمرد، وهي تبشره بنهاية رحلته المكدودة.

في هذا البحث سنحاول أنْ نتتبع جذور الفكر الإنساني المتعلّق بحلم المدينة الفاضلة، أو العصر الذي تنتهي فيه الآلام، ويجد الانسان فيه خلاصه، وغاية، حياته، بالاعتماد على النموذج الماركسي، والنموذج الاسلامي اللذين طرحهما السيّد محمّد الصدر (رحمه الله) في كتاب اليوم الموعود. سنحاول أيضاً أنْ نُظْهِرَ أثر الوعي، ومعناه، وعلاقته التاريخ. وسنعمد في أثناء الكتابة إلى رشّة من الفانتازيا التي نعتقد أنّها مرتبطة باليوتوبيا بشكل من الأشكال.

أصل الاصطلاح (اليوتوبيا)

اليوتوبيا كمصطلح ظهر إلى الوجود لأوّل مرّة في رواية لتوماس مور نشرت باللغة اللاتينيّة عام (1516م) مزجت بين الخرافة وقصّص الرحلات، تحدّث فيها الكاتب عن جزيرة تسمى بهذا الاسم Utopia (يوتوبيا). مثّلت حكومتها وشعبها الحكومة والشعب الأمثل، ثُمَّ أصبح المصطلح يشير إلى كلّ طرح يرتبط بالمدينة الفاضلة، أو الحكومة المثلى، أو أيّ حالة اجتماعيّة تصل إلى أعلى حالات الكمال. والمصطلح يعني أصلا: «اللامكان» باللغة اللاتينيّة الأصلية، وأقرب ترجمة عربية لها هي الطوبائيّة، وهو اشتقاق غير مشهور لكلمة طيّب. [1]، وقد استخدمنا في هذا البحث نفس هذا الاصطلاح لنفس المعنى، وهو الحلم بالوصول إلى مجتمع انساني مثالي وكامل، أو كما عبّر عنه السيّد الصدر في كتابه اليوم الموعود نفسه؛ بالمجتمع المعصوم، مستعملاً لفظة العصمة ذات المضمون الإسلامي. ولا يعتقدنَّ أحدٌ أنَّ هذه اليوتوبيا نشأت من العدم، أو هي نتاج لحظة تفكير، أو لمعة إشراق فجائيّة، حلّت في ذهن «توماس مور» في القرن السادس عشر، بل هي فكرة مغرقة في القدم، وذات جذور تشتبك بقوّة مع منظومة كبرى من الأفكار الإنسانيّة المتراكمة والمتراكبة، خلال تاريخ وعي الانسان بنفسه، وبما حوله في هذا الكوكب الغريب.

(1) يوتوبيا، طوماس مور: 7 -11.

الجذر الميتافيزيقي لليوتوبيا

لـن يكـون من الغريب أبـداً أنْ تتحدّث الأديان، سـواء السـماوية منهـا، أو الأرضيّـة (الوضعيّـة) عن مواضيـع ذات طابع يوتوبـي، باعتبار أنَّ الأديـان بطروحاتهـا المختلفة، أو المتخالفـة ـ أحياناً ـ تلتقي في نقطة تعـدُّ القاسـم المشـترك بينهـا، وهي تبشـيرها بنوع مـن الحلم المنشـود للبشـريّة، ولـن يكـون مـن العسـير أنْ نتتبـع جـذور ذلـك الحلـم فـي نصـوص دينيّـة عديـدة ذات طابـع ميتافيزيقـي، باعتبـار أنَّ الاديـان بمجملهـا رؤيـة ميتافيزيقيّـة للوجود.

والأديـان- كمـا نعلـم- قديمـة جـدّاً، وسـابقة علـى المصطلـح الـذي تـمّ سـكّهُ فـي الروايـة مـور، سـابقة الذكـر بقـرون، فقـرات لا تعـدّ ولا تحصـى مـن العهـد القديـم والجديـد، تتحـدّث بصراحـة عن يـوم الدينونـة، أو اليـوم الـذي سـيكون فيـه ملكـوت الأرض (كمـا في السـماء). والكتـاب الـذي بيـن أيدينـا الآن، والـذي يـدور بحثنـا أصلا فـي متونـه ملـيء بعـدد كبير من الآيـات القرآنيّـة والنصوص المنسـوبة إلـى الأئمّـة عليهم السلام التـي تتحـدّث عـن هـذا (اليـوم الموعـود)، والفتـرة الزمنيّـة التـي يصـل فيهـا المجتمع إلـى حدّ العصمـة والكمـال، المتبوع بالضـرورة بحالـة السـعادة الأبديّة.

لكـن الغريـب أنْ يكون هنـاك جـذر ميتافيزيقي للطـرح اليوتوبي الماركسـي الـذي يدّعـي دائماً الإبتعاد عن كلّ ما هـو ميتافيزيقي، أو كلّ مـا يمـتّ بصلة لـــ (ما بعـد طبيعي). الماركسـي يريد أنْ يقـدّم رؤيته اليوتوبيّـة بطريقـة توحـي للمتلّقـي بأنّـه يسـتند إلـى قانـون رياضـي لا يأتيـه الباطـل مـن بين يديه ولا من خلفـه، فتدّعي الماركسـيّة أنْ رؤيتها

عـن (آخـر الزمـان) ليسـت مسـتقاة مـن فلسـفة ميتافيزيقيّة مـا ورائيّة، بـل هـي قانـون وحتميّـة تاريخيّة، لابـدَّ من الوصـول إليها عبـر مراحل سـتحدث بالضـرورة مرحلـة بعد أخرى، ورغـم أنَّ هـذه (الحتميّة) هي فكـرة بائسـة، تنكشـف عورتها مباشـرة، لو وضعت تحـت مجهر فيزياء الكـم الحديثـة، واحتماليّاتها غيـر المحدودة، إلّا أنّنا سـنغفل هذه النقطة (مختاريـن) التزامـاً بمرتكز الموضـوع قيد البحث.

يـدرج السـيّد الصـدر فـي كتابـه فقـرات مختـارة توضـح وجهة نظـر الطـرح الماركسـي بالميتافيزيقيـا، وكيـف أنَّ أكابـر فلاسـفته ومفكّريـه يحاولـون تحميـل المصطلح مـا لا يحمل من معاني لأسـباب ايديولوجيّـة وحزبيـة ضيّقة. وسـننقل هنا ثلاث اقتباسـات فقط لتوضيح الفكرة:

يقـول سـتالين: «إنَّ الديالكتيـك– خلافـاً للميتافيزيقيـا– لا يعتبـر الطبيعـة تراكمـاً عرضيّاً للأشـياء، وحـوادث بعضها منفصـل عن بعض. بـل يعتبـر الطبيعـة كلاً واحداً متماسـكاً ترتبـط فيه الظواهـر والأحداث ارتباطـاً عضوياً».

«إنّ الديالكتيـك –خلافـاً للميتافيزيقيـا– لا يعتبـر حركـة التطـوّر حركـة نمـو بسـيطة، اي: لا تـؤدّي التغييـرات الكمية فيها إلـى تغييرات كيفيّـة، بل يعتبرهـا تطوّراً ينتقل مـن التغييرات الكميّـة الضئيلة والخفية إلـى تغييـرات ظاهرة وأساسـيّة، أي: تغييـرات كيفيّة»[1].

«قـال بوليتـزر: وتفصل الميتافيزيقيـا المادّة الخامّ عـن المادّة الحيّة وعـن الفكـر؛ لأنّ الميتافيزيقيـا تعتبر أنّ هذه المبـادئ الثلاث منعزلة كلّ

(1) الماديّة التاريخيّة، ستالين هامش 13.

منهـا عن الآخـر» انتهى الاقتبـاس الثالث[1].

والديالكتيـك هـو القانـون الكلّـي الـذي تعتمـد عليه الماركسـيّة فـي تفسـير التاريـخ مـن جهـة، وفـي التنبـؤ بالمسـتقبل البشـري الذي سـيتبلور خـلال مراحـل مدروسـة وفـق نفـس هـذا القانـون وبشـكل حتمـي. وفـي معـرض الـردّ على هـذه الأقـوال (وغيرهـا) يقول السـيّد الصـدر فـي كتابـه: «إنَّ أيـاً مـن هـذه الآراء غيـر متضمّـن فـي معنـى الميتافيزيقيـا بـأيّ حـالٍ من الأحـوال. وإنّمـا الميتافيزيقيا مفهوم بسـيط لا يعنـي سـوى وجود شـيء ما وراء العالـم الطبيعي المنظـور، فمن أين جـاءت هـذه الإضافات» [2]. ويقـول أيضاً: « إنَّ الماركسـيين مزجوا في كلماتهـم بيـن الفكـر والعاطفـة، وقـد يكـون لهـم بعـض العـذر حيث تبنـوا الحزبيّـة، ورفضـوا الموضوعيّـة فـي التفكير. وأمّا مـن يرفض هذا الأتجـاه، ويقيّـم المفكّـر بمقـدار ما يبذل مـن موضوعيّة وتجّـرد.. كيف يمكـن أن يركـن إلـى ما قالـوه مـن كلام؟»[3] .

لكـن الحقيقـة إنَّ الماركسـيين لـم يقتصر الأمر لديهـم في الوقوع فـي الخلـط فـي مفهـوم الميتافيزيقيـا ولا تحميلـه مـا لا يحتمـل مـن معانـي فقـط، بـل إنَّ طرحهم كلّـه ميتافيزيقـي بامتياز، بسـبب أنَّ حجر الزاويـة فـي كلّ أطاريحهـم حجـر ميتافيزيقـي إذا صح التعبيـر، ونقصد بذلـك القانـون الكلّي الذي-بحسـب رأيهـم- يحكـم كلّ التاريخ، وهو قانـون الديالكتيـك. إذ إنَّـه لـو حوكـم بنظـرة الموضوعيّـة فلـن تخفى

(1) أصول الفلسفة الماركسيّة، 1: 58.

(2) اليوم الموعود، 74.

(3) نفس المصدر، 76.

ميتافيزيقيتّـه علـى أحد.

لاحـظ رأي السـيّد الصـدر في مناقشـة هـذه الجزئيّـة «إنَّ القانون الكونـي أيّـاً كانت صيغتـه ومدلوله، وفـي أيّ ميدان كان عملـه، إنّما هو مفهـوم ذهنـي منتـزع من عـدد مـن الوقائـع الجزئيّـة الخارجيّـة، فقولنا: «إنَّ الجسـم الكبيـر يجـذب الجسـم الصغير» ليـس إلّا صيغـة ذهنيّة، أو تعبيريّـة منتزعـة، أو مفهومـة باعتبـار ملاحظـة عـدد ضخم مـن الوقائع الخارجيّـة التـي حدثـت فيهـا الجاذبيـة فـي عالم الكـون، فهنـا تنجذب تفاحـة، وهنـاك تنجـذب حصـاة، وهنالك ينجـذب كوكـب ... وهكذا.. فنلاحـظ ذلك فنقول: «كلّ جسـم كبيـر يجذب الجسـم الصغير»، والذي هـو قانـون الجاذبيّة. ولا يمكـن أنْ يكـون للقانون بمعناه الواسـع وجود واقعـي، وإنّما الوجـود في الخارج ليس إلّا الجزئيّـات، والوقائع الخاصّة.

والبرهـان علـى ذلـك مـن زاويتنـا الحقيقـة الفلسـفيّة القائلـة: إنَّ الكلّـي- علـى سـعته- لا يوجد فـي الخـارج، وعالم الوجـود الخارجي مسـاوق مع الجزئيّـات والتعيّن. والمفهوم القانونـي مفهومٌ كلّيٌّ لا يمكن أنْ يوجـد فـي الخارج. والبرهان مـن زاوية المادّيّيـن: إنَّ القانون الكلّي، أيـاً كان، ليـس (مـادّة)؛ ولأنّـه مسـيطر علـى المـادّة والمادّيّـات وحاكم عليهـا، وليـس محسوسـاً، ولوضـوح أنَّ مـا هـو المحسـوس هـو مدار وانطبـاق القانـون، لا القانـون علـى سـعته، فأنّنـا نـرى التفاحـة تنجذب إلـى الأرض، لكنّنـا لا نـرى قانـون الجاذبيّـة.. فالمادّيـون يقولـون: بـأنَّ الوجـود الواقعـي منحصـر بالمـادّة، ويقولـون: إنَّ مـا ليـس بمحسـوس ليـس بموجـود، وينتـج عـن ذلـك: أنَّ القانـون غيـر موجـود باعتبـاره غيـر محسـوس. وأنّ مـن يتحدّث عـن «القوانيـن الموضوعيّـة» كما هو

ديـدن الماركسـيين ـ دائمـاً ـ فهم يتحدّثـون – لا محالة – عن شـيء غير مـادّي ولا محسـوس، بـل عـن شـيء ميتافيزيقـي أو مثالـي ((مقيـت)) كمـا يعبّـرون هم بأنفسـهم.

ولا ينجـو مـن ذلـك حتّـى قانـون الديالكتيـك نفسـه. فاننـا لـو لاحظنـاه بحياله لوجدناه مفهوماً ميتافيزيقياً مثالياً لا مادّيّاً ولا محسوسـاً. وإنّمـا المحسـوس – لـو صـحّ هـذا القانـون – هـو وقائعـه وتطبيقاتـه الجزئيّـة. فنحـن نرى هذه الشـعيرة (حبة الشـعير) – كما مثـل انجلز في مثـال مشـهور في الماركسـيّة – تصبـح نبتة، وهـذه النبتة تصبح شـجرة، وهـذه الشـجرة تصبـح ثمـرة... ولا نرى القانـون على شـموله وعمومه. إذن؛ فقانـون الديالكتيـك علـى سـعته هـو ميتافيزيقيا، بل مـا هو فرض ميتافيزيقي ليـس إلّا»[1].

ويمكـن أنْ نفسّـر الموضـوع باختصـار أكثـر، لنقـول: إنَّ عالـم المادّيّـات والمحسوسـات الـذي تحـاول كلّ الفلسـفات المادّيّـة، ومنها الماركسـيّة أنْ تحصر وتقصر الوجود فيه، هـو عالم الجزئيّات والتعيّنات الخارجيّـة، أو الاشـياء التـي يمكـن اختبارهـا بالحسّ العـادي (الحواس الخمـس أو مـا يقويّهـا)، أمّـا الكلّيّـات والتـي تشـمل كلّ مـا يمكـن انتزاعـه أو فهمـه عـن العلاقـات التي تربط هـذه الجزئيّات مـع بعضها، والقوانيـن التـي تنظّـم وجودهـا، فلا يمكـن للحواس الخمـس وحدها أنْ تصـل إليـه، وبذلـك فهـو مجـرّد خيـاب ميتافيزيقـي، ووهم سـاقط مـن الاعتبـار العلمي أساسـاً – بحسـب رؤيتهـم – وبذلك سـيكون نفس قانـون الديالكتيـك باعتبـار أنّه القانون الأوسـع ـ كما تقول الماركسـيّة ـ

(1) اليوم الموعود : 95-96.

والـذي يشـمل كلّ الوجـود، فهـو أيضـاً كلّيّـة مـن الكلّيّـات، ومفهـوم عقلـي لا يمكـن للحـواس الخمـس التعامـل معه مباشـرة، وهـو بذلك أيضـاً خيـال ميتافيزيقـي ووهم ليـس إلّا. وبذلك يسـقط حجـر الزاوية الـذي يسـتند عليـه الفكر الماركسـي، وهذا يعنـي: أنّ الفكر الماركسـي كلـه هـو ميتافيزيقيـا ((مقيتـة)) كمـا يشـهدون هم عن أنفسـهم.

لكـن (كاد المريـب أن يقـول خذونـي)، إذ إنّنا نعتقد شـخصيّاً أنَّ الفكـر الماركسـي ليـس فكـراً ميتافيزيقياً فقـط، وإنّما هو فكـر أبعد في الميتافيزيقيـا غـوراً مـن الكثيـر مـن الطروحات الأخـرى حتّـى الدينيّة، لكـن منظّريـه وقادتـه يحاولـون دائمـاً إخفاء هـذه الحقيقـة (الواضحة) بالهجـوم الدائـم علـى الميتافيزيقيا والديـن، وكلّ أنواع الفلسـفات التي تؤمـن أو تقبـل أنْ يكـون للوجـود جـزء لا تدركـه الحـواس الخمـس العاديّة.

منظـرو الماركسـيّة ميتافيزيقيّون ممتازون، وهـم يعرفون أنَّ العقل الباطـن للإنسـان ينجـذب لا إراديّـاً للطروحـات ذات الجانـب الرمزي العميق-وسـنناقش ذلـك تباعـاً فـي القـادم من البحـث- ومنها التبشـير بالعالـم السـامي، أو المدينـة الفاضلـة، أو سـمّها مـا شـئت، ومـا هو إلّا تلاعـب علـى أعمـق أوتـار النفـس البشـريّة وذكرياتهـا المدفونـة عن عالم السـماء أو الجنّة التي بدأ منها كلّ شـيء وسـيعود إليها كلّ شـيء.

الجذر الغنوصي للديالكتيك واليوتوبيا الماركسيّة

قبـل أنْ نسـتفيض فـي الشـرح والبيـان يجـب أنْ نوضـح قليـلاً مـاذا يعنـي الديالكتيـك عبـر كتابـات الماركسـيين أنفسـهم نقـلا عـن كتـاب «اليـوم الموعـود»، وبالإشـارة إلـى المصـادر الأصليّـة؟ وسـنضع

الجمل التي نعدّها مفاتيح الربط بين ظاهر الماركسيّة وباطنها بالخط العريض المائل ليتم مناقشتها تباعاً. وسنروم الاختصار ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً.

يفرد السيّد الصدر فصلين من كتاب «اليوم الموعود» لطرح الديالكتيك ومناقشته[1]، ونقتبس منه الآتي: قال انجلز: المسألة الكبرى في كلّ الفلسفة، وخاصّة الفلسفة الحديثة، هي مسألة العلاقة بين الفكر والوجود.. مسألة معرفة أيّ عنصر هو الأسبق، الروح أم الطبيعة. هذه المسألة اتّخذت في الكنيسة منحىً حادّاً، العالم من صنع الله أم هو موجود منذ الأزل؟

وقد انقسم الفلاسفة ـ حسب جوابهم ـ إلى معسكرين كبيرين:

المعسكر الأوّل: الذين كانوا يؤكّدون صفة أسبقيّة الروح على الطبيعة، وهؤلاء يسلّمون في نهاية المطاف بخلق العالم.

المعسكر الثاني: هم الذين يعتبرون أنَّ العنصر الأسبق هو الطبيعة، وكانوا ينتمون إلى مختلف المدارس المادّيّة[2].

وقد اختارت الماركسيّة الجانب المادّي جواباً على هذا السؤال. يقول انجلز أيضاً: إنَّ الفهم المادّي للعالم، يعني– بكل بساطة–: فهم الطبيعة كما هي، دون أيّ اضافةٍ غريبةٍ. وكتب لينين بصدّد المفهوم المادّي عند فيلسوف العهد القديم هيراكليت الذي جاء فيه «أنّ العالم هو كلّ واحد وقد كان ولا يزال شعلة حيّة إلى الأبد، تشتعل وتنطفيء تبعاً لقوانين معينة» قال: ياله من شرح

(1) اليوم الموعود: 77 – 107.

(2) نصوص مختارة، انجلز. 61 – 62.

رائـع لمبـاديء الديالكتيـك[1]. وأضـاف انجلز: لكن مسـألة علاقة الفكر بالكائـن ترتـدي أيضـاً مظهـراً آخـر: مـا هـي العلاقـة بيـن أفكارنا عن العالـم المحيط بنا والعالم نفسـه؟ وهل يسـتطيع فكرنـا أن يعرف العالم الواقعـي؟ .. هـذه المسـألة تسـمى فـي اللغـة الفلسـفيّة مسـألة مطابقـة الفكـر والكائـن. وإنَّ أكثـر الفلاسـفة قـد أجابـوا عنهـا بالإيجـاب[2]. واعتقـدت الماركسـيّة بإمـكان اجتمـاع النفـي والاثبـات في هـذا الواقع الـذي اعترفـت بـه، حتّـى في الشـيء الواحـد ذاتـه. واعتبـرت الإيمان بهويّـة واحـدة ثابتة للاشـياء ضربـاً ميتافيزيقيّاً مـن التفكيـر، وهذا يعني كمـا لا يخفـى: ضربـاً لقانـون عـدم التناقض[3].

يقـول انجلـز أيضـاً: إنَّ مبـدأ الهويّـة بالمعنـى الميتافيزيقي، وهو المبـدأ الأساسـي للمفهـوم القديم عـن العالم، وهـو أنّ: أ=أ دائمـاً، وأنَّ كلّ شـيء متماثـل مـع نفسـه... هـذا المبـدأ قـد دحضـه علـم الطبيعـة نقطـة فنقطـة وفـي حـال أثر آخـر[4]. وقـال أيضاً: أكيـد إنّنـا لا نصطدم بـأيّ تناقـض مـا دمنـا نعتبـر الاشـياء سـاكنة وبـدون حيـاة. كلّ لذاتـه. الواحـد إلـى جانب الواحـد. والواحد بعـد الواحد... وفي حـدود ميدان الملاحظـة هـذا، نخـرج بنسـق التفكيـر الـدارج، النسـق الميتافيزيقـي. ولكنّنـا رأينـا أنَّ الحيـاة تقـوم بالدرجـة الأولـى، وعلـى وجـه التحديد فـي أنَّ كائنـاً مـا هـو فـي كلّ لحظـة ذاتـه، وآخـر مـع ذلـك. فالحيـاة

(1) الماديّة التاريخيّة: 24.

(2) لودفيج فورباخ: انجلز، 21.

(3) اليوم الموعود: 79.

(4) نصوص مختارة، انجلز، 105.

بالتالـي هـي أيضاً تناقـض... ومذ يتوقـف التناقض تتوقـف الحياة أيضاً ويحـلّ المـوت [1]. وقـال لينيـن: التطـوّر هـو نضـال المضـادّات. وقال سـتالين: تعتبـر الطريقـة الديالكتيكيّـة أنَّ حركـة التطوّر مـن الأدنى إلى الأعلـى، وهـي لا تجري بتطـوّر الحوادث تطـوّراً تدريجيّاً متناسـقاً، بل بظهـور التناقضـات الملازمـة للأشـياء والحـوادث. فالتطـوّر هـو نضال الاتّجاهـات المتضـادّة التـي تعمـل على أسـاس هـذه التناقضـات[2].

وهنـا نصـل إلـى مـا تسـميه الماركسـيّة نفـي النفـي، أو التركيب بيـن النفـي والإثبـات، والذي هـو روح التطوّر فـي الماركسـيّة كما عبر السـيّد الصـدر[3]. يقـول انجلـز: إنَّ نفـي النفي هـو قانون تطـوّر الطبيعة والتاريـخ والفكـر، هو قانـون عام للغايـة، قانون على المملكـة الحيوانيّة والنبـات والجيولوجيـا والرياضيات والتاريخ والفلسـفة[4].

ولكـي يتّضـح المفهـوم أكثـر، يجـب أنْ نعـرج علـى مـا يسـمى بالثلاثيّـة الماركسـيّة، وهـي: الأطروحـة والطبـاق والتركيـب. والمقصود بالأطروحـة القضيّـة، أو وجـود الشـيء ذاته، سـواءً فـي عالم المـادّة أو الفكـر. وجـود نظريّة مـا أو حيوان مـا أو نبات ما وهكذا. أمّـا الطباق أو ضـدّ القضيّـة، فهـو تحقيق نقيض ذلـك الوجود (في داخلـه أو خارجه) وهـو ما يسـبب زوال ذلك الشـيء الأصلـي. أمّا التركيب الـذي هو نفي النفـي الـذي نحن بصـدّد توضيحه فهـو: الصراع بين وجود هذا الشـيء

(1) نفس المصدر: 109.

(2) الماديّة التاريخيّة، ستالين: 19.

(3) اليوم الموعود: 82.

(4) مختارات انجلز: 117.

الأصلي وبين عدمه. أو قل: بين الاطروحة والطباق، بحيث يكون هذا الصراع السبب للوصول إلى وجود جديد أفضل. وجود ثالث هو ليس الأطروحة ولا الطباق، ليكون هو بدوره أطروحة لصراع آخر، وهكذا تستمر حركة التطوّر والتاريخ[1] .

وإنطلاقاً من هذا القانون الثلاثي (وهو الديالكتيك القانون الأمّ لكلّ الطرح اللاحق) تصوغ الماركسيّة قانون آخر لتفسير التطوّر بالمفهوم الواسع للاصطلاح، وهو: قانون تراكم التغيّرات الكمّيّة وتحوّلها إلى تغيّرات كيفيّة. والمراد بالتغيّرات الكمّيّة هي التغيّرات الطفيفة التي تطرأ على الشيء (بسبب صراع الأضداد المتواصل)، أمّا التغيرات الكيفيّة فهي التغيّرات الجوهرية الأساسيّة التي بها لن يعود الشيء هو هو، كما كان في السابق. وهذا التغيّر الجوهري الكيفي ناتج من تراكم التغيّرات الكمّيّة الطفيفة[2]. يقول ستالين: إنَّ الديالكتيك– خلافاً للميتافيزيقيا– لا يعتبر حركة التطوّر حركة نمو بسيطة، بل يعتبره تطوّراً ينتقل من تغيّرات كمّيّة طفيفة وقليلة إلى تغيّرات ظاهرة وأساسيّة، أي: تغيّرات كيفيّة، وهذه التغيّرات الكيفية ليست تدريجيّة، بل فجائيّة وتحدث بقفزات من حالة إلى اخرى. ولذلك فيجب أنْ يفهم وفقاً للنظرة الديالكتيكيّة أنَّ حركة التطوّر حركة تقدميّة صاعدة تنتقل من البسيط إلى المركّب، ومن الكيفيّة القديمة إلى الكيفيّة الجديدة[3].

(1) اليوم الموعود: 84.

(2) نفس المصدر: 86.

(3) الماديّة الديالكتيكية والماديّة التاريخيّة: 15- 16.

نعتقد أنَّ هذا العدد من الاقتباسات سيكون كافيا بوصفه نقطة إنطلاق لتوضيح ما نريد توضيحه في الفقرات اللاحقة من البحث، وهو كشف الجذر الغنوصي الباطني للطرح الماركسي، وليس الميتافيزيقي فقط. وأنّ الماركسيّة حركة باطنيّة في الأساس، أظهرت الإلحاد، وأبطنت الغنوص، وهي غارقة في الميتافيزيقيا حتّى أذنيها، بل أنّها أكثر ميتافيزيقية من طروحات الميتافيزيقيين أنفسهم (ومنهم صاحب الكتاب) كما سيتبّين تباعاً بإذن الله. وها قد آن أوان امتطاء الفينيق.

إنَّ المُطّلع على الطروحات الغنوصيّة العميقة على اختلاف أنواعها سيجد أنّها تنطلق جميعها تقريباً من نقطة مركزيّة، هي ثلاثيتهم المعروفة بمثلث العظمة (الترايماجستس)، ويقصدون بها ثلاثة أنواع من المعارف الميتافيزيقيّة، وهي على التوالي: القبالة، والخيمياء، والتنجيم. وهذه الثلاثيّة المعرفية تجتمع في جذر واحد، هو ما يعرف بالهرمسيّة القديمة وقوانينها. هذه الهرمسيّة وما يتفرّع منها هي نظرة قديمة جدّاً للوجود. يمكن أنْ نقول: إنّها أقدم من أقدم دين أو فلسفة موجودة. تظهر بشدّة في الأديان ذات الطابع الوثني أو التعدّدي الآلهة، وتظهر بشكلٍ أقلّ وضوحاً، ولكن بوضوح كافٍ في الطروحات الباطنيّة اليهوديّة، وتظهر كذلك في كلّ طرح باطني أو صوفي أو غنوصي أو حتّى عرفاني في كلّ الأديان والملّل والنحل[1].

تعتمد الغنوصيّة على لغة رمزيّة غاية في التعقيد. قد تكون

(1) The secret teachings of all ages p39 and after.

أشكالاً هندسيّةً مجسمةً أو مستويةً أو ألوان أو خطوطاً أو هياكل أو لوحاتٍ أو أيّ شيء آخر. كما أنّها تظهر ـ أحياناً ـ على شكل نصوص لغويّة مفهومة أو غير مفهومة– كالأساطير والكتب المقدّسة للأديان– ذات معاني باطنيّة قابعة تحت المعاني الظاهريّة لها[1]. من وجهة نظر علم النفس، فإنَّ الرموز هي اللغة الوحيدة التي يتعامل معها العقل الباطن، سواء العقل الباطن الفردي بالمستوى الفرويدي للتفسير، أو العقل الباطن الجمعي، أو الخافية الجامعة بالمستوى اليونغي للتفكير، «نسبة إلى كارل كوستاف يونك، عالم النفس المشهور، وواضع مصطلح الخافية الجامعة [2].

لن نتعمق أكثر حتّى لا نخرج عن الموضوع، لكنّنا نريد أنْ نشير إلى حقيقة مهمّة، وهي: أنَّ أيّ طرح مهما كان علميّاً ومحكماً لن يكتب له النجاح والانتشار، إذا لم يخاطب العقل الباطن، الفردي أو الجمعي؛ وهذا يعني استخدام لغة الباطن ورموزها، لاستثارة ردود أفعال مدروسة، تحدو بالمجتمع ليتحرّك باتّجاه معيّن مقدّر له سلفاً، وهذه النقطة هي سرّ نجاح الأديان، من جهة أنّها تخاطب باطن النّفس البشريّة، لاستثارة كوامن مدفونة فيها، كما عبّر الإمام علي عليه السلام عن ذلك عندما سألوه عن سبب نزول الأنبياء، حيث أجاب عليه السلام: «يذكروهم منسي نعمته، ويحتجوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول»[3]. وإثارة دفائن العقول لا تكون إلّا بمثيرات معيّنة، الرموز

(1) Chinese Alchemy CH 14.

(2) Real Alchemy P3-4.

(3) نهج البلاغة: ٢٣.

والإشـارات العميقة هـي إحداهما.

الماركسـيّة وصفـت في أكثر من مـكان بأنّها دين مشـابه للأديان، بسـبب كثـرة ما حـازوه من أتبـاع في فترة مـن الفترات، واتّسـاع الرقعة الجغرافيّـة التي انتشـرت أفكارها فيها، وكذلك العـزم، والتفاني، والروح الوثابـة التـي امتلكهـا الكثير مّمن اعتنقـوا تلك الأفكار فـي حينها، وهي صفـة قـد لا ينافسـها فيها أيّ طـرح فكري آخر غيـر الأديـان الحقيقيّة، أو الوضعيّـة، والسـبب: أنّهـا اعتمدت نفس الأسـلوب كما أوضحنا.

أمّـا ازدراء الماركسـيّة الظاهـري للميتافيزيقيـا فيعـود إلى أسـباب عِدّة:

أوّلهـا: إبعـاد شـبهة الأفـكار الغنوصيّة عنها، وتقديم نفسـها كفكّر مـادّي بحـت في مقابـل الدين، كذلك لتحوز شـيء من السـمعة العلميّة المرتبطـة عـادة بالفكر العلمـي المعتمد علـى التجربة والعقـل والحسّ، وكذلـك فـإنّ إخفـاء اسـتخدامها للطـرح الرمـزي الباطنـي يسـمح لهـا بمرونـة أكثـر، وابتعـاد عـن الشـبهات، ومسـاحة أكثـر فـي الحركـة، وغيرهـا من الأسـباب.

لنعُـد الآن إلـى أصل الموضـوع، لنبيّن للقارئ أوجـه الإنطباق بين الطـرح الماركسـي، والطـرح الغنوصـي الباطنـي، إعتماداً علـى الفقرات والمفاتيـح التـي ظلّلناها من اقتباسـات أسـاطين الفكر الماركسـي. على أنَّ هـذه الفقـرات القصيـرة مـا هـي الاّ عينـات قليلـة جّـداً مّمـا ذُكـر فـي كتـاب اليـوم الموعـود فقـط. ولـو كانـت لنـا مسـاحة واسـعة من البحـث– وهـي غيـر متوفّرة هنـا– لبيّنا أنَّ الماركسـيّة في كلّ فلسـفاتها وطروحاتهـا، وخصوصـاً الجـزء المتعلّـق بأقامة العالم الصالـح في نهاية

التاريخ، ماهي إلى عمليّة (نسخ-لصق) لأفكار قديمة جدّاً، بل مغرقة في القدم، محفورة بقوّة وبشكل لا يمكن الفكاك منه في أعماق باطن النّفس البشريّة، والتي ما إن يتمّ استثارتها (بالرموز والأشارات المناسبة) حتّى تنهض من تحت الرماد العتيق، وتعود للتوهج والاشتعال.

لنبدأ من الديالكتيك بوصفه حجر الزاوية في كلّ الطروحات الماركسيّة الأُخرى، وباطّلاع بسيط على الطرح الغنوصي ستكتشف أنَّ جذر فكرة الديالتكيك ينتمي للعديد من الثقافات الغنوصيّة الشرقيّة أو الغربيّة، فيظهر ماثلاً أمامك في التاوية الصينيّة القديمة بما يعرف بتفاعل اليين واليانغ السرمدي، أو تفاعل المبدأ الذكري الفعال الأبيض مع المبدأ الانثوي المنفعل الأسود، وستجد أنَّ الفلسفات والطروحات المرتبطة بهذا الموضوع تصف وتشرح مبادئها بشكل يكاد يكون منطبقاً تماماً على التوصيفات الماركسيّة، كتوصيفات (القانون الكلّي للكون) و(الصراع الأبدي) و(التفاعل بين الشيء ونقيضه) كلّها موجودة في الفلسفة التاوية القديمة، وبطريقة أوضح وأكثر فهماً للمتلقّي من الطروحات الماركسيّة لسبب بسيط، وهو: أنَّ الطرح التاوي، وكلّ الطروحات الأخرى لم تطرح فلسفة غنوصيّة باطنيّة، وهي تحاول أنْ تبعد شبهة الغنوص عن نفسها، مثلما فعلت الماركسيّة فسقطت مباشرة في التهافت، بعد أنْ كانت ساقطة أصلاً في شبهة الاقتباس غير الأمين[1].

تطرح الفلسفات الباطنيّة فكرة موحّدة تقريباً عن الصراع

(1) Chinses Alchemy. Ch. one. Origen's.

الأزلي بين المبدأين اللذين قد يكونا الخير والشرّ، كما في الطرح الزرادشتي، أو السماء والأرض، كما في الغنوص اليهودي (والإسلامي شيئاً ما)، أو المبدأ الذكري والانثوي للمادّة الأمّ (البرايما متيريا prima materia) كما في علم الخيمياء القديم. أو القضيّة ونقيضها كما في الطرح الماركسي المتأخّر[1]، وحتّى جمل من قبيل: أنَّ كلّ قضية تستلزم ضدّها، أو نقيضها في داخلها، والذي ما إنْ تتبلور في الخارج، حتّى يتبلور نقيضها معها، ليدخلا معاً في الصراع المحتوم. تجدها ماثلة أمامك في أشهر رمز من رموز الغنوص، وهو هذا الماثل أمامك في الصورة.

لاحظ كيف أنَّ نقطة بيضاء تقبع في قلب الجزء الأسود، ونقطة سوداء في قلب الجزء الأبيض، إشارة لكمون النقيض في قلب القضيّة دائماً. الرمز يظهر الصراع الأزلي بين النقيضين بصورة واضحة، وهو يكون (كلّ شيء) بحسب التعبير المتّبع في توصيفه في الفلسفات التي تطرحه، والجزءان معاً يكونان نفي النفي، أو القضيّة الجديدة التي تتولّد دائماً من هذا الصراع، فهل هناك جديد في ديالكتيك الماركسيّة المزعوم؟ غير محاولة نفي شبهة الميتافيزيقيا، وهم يسبحون في لجّتها[2].

لكن هناك ظهوراً أوضح لفكرة صراع الأضداد هذه، وهي هنا تأخذ طابعا أقلّ راديكاليّة وعنف، إذ يتحوّل الصراع فيها إلى زواج، وهو في نظرنا المصطلح الأقرب إلى الحقيقة. الحقل المعرفي

(1) Real Alchemy P6 and after.

(2) Real Alchemy P 17-18.

الباطنـي هـذه المـرّة هـو الخيميـاء، والتـي قـد تسـمّى الكيمياء القديمـة أحياناً وقد تسـمّى السـيمياء، نسـبة إلى استخدامها اللغـة الرمزيّـة فـي التعبيـر. والخيميـاء التـي قـد تسـمّى أحيانـاً علـم التحـوّل مجـال معرفي باطني معني بدراسـة القوانين (الباطنيّـة فـي مجملهـا) التـي يمكـن مـن خلالها للشـي ء أو الموضـوع أو القضيّـة بالمعنـى الواسـع للاصطـلاح مـن التحوّل من حالـة إلـى حالـة- أو مـن كيفيّـة إلـى كيفية أفضل فـي أغلـب الأحيان، وطريقـة حـدوث ذلـك[1] .

والخيميـاء أو علـم التحـوّل هـو تقريبـاً الجـذر الـذي اعتمدتـه الماركسـيّة لوصـف حالـة التطـوّر الاجتماعـي الـذي سـيحدث فـي المسـتقبل عبـر تراكمـات طفيفـة ناتجـة مـن صـراع الأضـداد سـابق الذكـر. حتّـى الوصـول إلـى اللحظة التـي تتحـوّل فيها هـذه التراكمات الكمّيّـة إلـى تغيّـرات كيفيّـة فـي لحظة لن يكـون ما بعدها مشـابه- في الكيفيّـة- لمـا قبلهـا، فنفـس هـذا الطـرح بالضبـط وبالانطبـاق الكامـل تطرحـه الخيميـاء القديمـة (المغرقـة فـي الغنـوص والميتافيزيقيـا) لوصـف حـالات تحوّل فـي مجالات عـدّة، أوضحها التحـوّل الكيميائي للرصـاص بوصفـه رمزاً لما هو خسـيس (بالتعبير الخيميائي المشـهور) إلـى ذهـب ابريـز (أو مـا هـو نفيـس). وتحـوّل الرصاص (الخسـيس) إلـى ذهـب (نفيـس) هو تحـوّل كيفي، وليـس كمّيّاً ناتجاً مـن تراكمات

(1) The same reference P6 and after.

كمّيّـة هـي العمليّـات التـي يجريهـا الخيميائـي في مختبـره [1].

هـذه العمليـات ترمـز لهـا دائمـاً قصـص وأسـاطير مشـهورة للخيميائييـن تتحـدّث عـن تحضيـرات لعمليّـة زواج بين ملـك وملكة. تبـدأ بتحضيـرات مثـل (تطهيـر الملـك)، ومن ثُـمّ (فصله) عـن رعيته، و(خلـع) تاجـه، وحتّـى (احراقـه) ربمـا. وعمليّـات أخـرى مشـابهة تحـدث للملكـة أيضـاً، تنتهـي بالزفـاف الـذي هـو عمليّة دمـج الملك والملكـة معـاً، وهـي العمليّـة الأخيرة التـي تنتهـي بالتحـوّل الخيميائي، الـذي يُنتـج ظهـوراً لكائـن متفـوّق، هـو ليـس الملـك ولا الملكـة، بل هـو نتـاج دمجهما معـاً، وهذا الـزواج الخيميائـي هو الحـدّ الفاصل بين مرحلتيـن، مـا قبلهـا لا يشـبه مـا بعدهـا من حيـث الكيفيّـة[2].

ترمـز الخيميـاء القديمـة لعمليّـة التحـوّل الكيفـي هـذه برمـوز عديـدة، وحسـب نـوع الثقافـة التـي تضمّهـا. ممكـن أنْ تظهـر علـى شـكل الاوروبـورس، وهـو التنيـن مـزدوج الـرأس، أو زوج التنانيـن اللذيـن يبتلـع أحدهما ذيـل الآخر. وأحدهمـا تنين مجنـح يقابل المبدأ الذكـري الفعـال (القضيّـة بالطـرح الماركسـي)، أمّا الآخر فهـو تنين بلا أجنحـة يقابـل المبدأ الأنثـوي المنفعل (الطبـاق أو ضـدّ القضيّة بالطرح الماركسـي)، واندماجهمـا معـاً لتكويـن حالـة جديـدة متطـوّرة مختلفة بالكيفيّـة عن الحالتين السـابقتين هـو الاوروبـورس، أو التنين المزدوج، وهـو نفـي النفـي الماركسـي كمـا أصبح واضحـاً[3] .

---

(1) The same reference P71 and after.

(2) Alchemy part3. P115-160.

(3) The same reference P238.

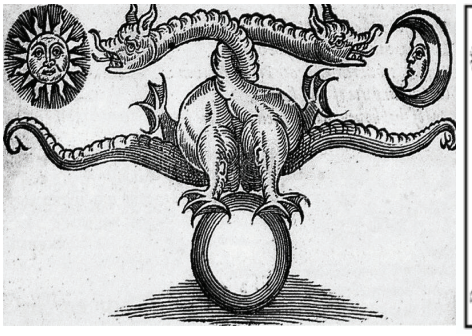

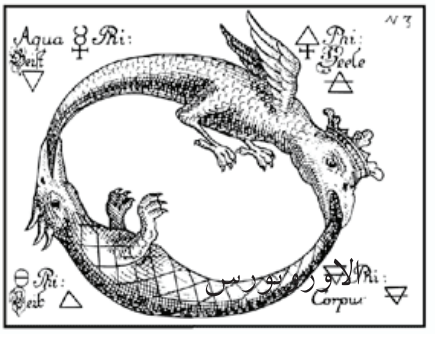

لننتقل من الديالكتيك إلى طرح آخر من الطروحات الماركسيّة، وهو طرح لا يقل أهمّيّة عن سابقه، ولا يقلّ إنطباقا عنه أيضاً مع الطروحات الغنوصيّة القديمة. الطرح هذا هو موضوعة أنَّ الكون كلّ واحد، وأنَّ الفكر مطابق للكائن، وأنْ لا وجود لعدم التناقض. وكلّ ذلك قد تمّ الإشارة إليه بالخطّ العريض المائل في الفقرات المقتبسة التي أشرنا إليها سابقاً.

من أهمّ الطروحات التي ميّزت الماركسيّة بوصفها فكراً فلسفياً مختلفاً هو موضوع رفض قانون عدم التناقض، وهو القانون المركزي تقريباً في طروحات كثيرة فلسفيّة، أو منطقيّة، أو حتّى رياضيّة، أو تنتمي للعلوم الطبيعيّة العاديّة، وكلّ باحث (مادي أو تجريبي) ينطلق من فكرة (بديهية) أنَّ (أ = أ) ولا يمكن أنَّ تساوي (ب)، إلّا إذا كان (ب) هو (أ) نفسه بلا زيادة أو نقصان.

ولكشف عمليّة الاقتباس غير الأمين (أو قلّ: السرقة ولا تخشى) يجب أنْ نقدّم مقدّمة بسيطة عن أصل الأفكار المقتبسة من مصادرها الأصليّة. وهذه المرّة سيكون الانطباق مع أفكار القبالة، أو ما يدّعى: بالكبالا.

والكبالا فلسفة غنوصيّة تفسّر الوجود على أنّه انبثاق (تجلّي) من الواحد الأوّل، وينعكس هذا (الواحد) أوّل انعكاس له، كما تنعكس صورة الشيء على المرآة، ثُمّ تتوالى الانبثاقات أو التجلّيات (الانعكاسات) حتّى تصل إلى عشرة. وهو الانعكاس الباطني للاعداد التي نستخدمها في النظام العشري في الحساب، وهذه الانبثاقات لا تكون عشوائيّة في علاقاتها مع بعضها، وإنّما تنتظم في نظام، وتأخذ شكلاً معيّناً هو ما تسمّيه الكبالا بشجرة الحياة (كما في الصورة).

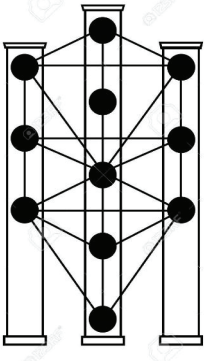

الانبثاقات الثلاث الأوّلى هي تمثيل للعالم السماوي الخارج عن الإدراك العقلي أو القلبي، أو بلغة الفلسفة خارج عن الإدراك بالحواس أو بالعقل أو بالحدس. الانبثاق القاعدي المتدلي من أسفل الشجرة هو ما يمثل أسفل نقطة من الوجود، حيث لا وجود إلا لمادة خالية من أي نوع من أنواع الإدراك أو الوعي، وهو الانبثاق رقم عشرة، وهو أسفل سافلين، والذي يقابل الانبثاق رقم واحد، وهو أعلى عليين. الانبثاقات الثلاث الأخيرة (المثلث الأسفل) هي عالم المادّة والحسّ الذي نعيش فيه حالياً، الانبثاق الأخير منها هو الجزء من هذا العالم الذي يدرك بالحسّ المباشر (الحواس الخمس العاديّة أو ما يقوّيها) بينما الانبثاق الثامن (أعلى بدرجة واحدة تشريفيّة، لكنّه ما زال ينتمي للعالم الأسفل) هو الجزء من هذا العالم الذي يتمّ ادراكه بالعقل أو لنسمّه: عالم المفاهيم. الانبثاق الآخر من الانبثاقات الثلاث السفلى هو الانبثاق رقم سبعة (أعلى

بدرجة تشريفيّة واحدة أخرى) هو الجزء من هذا العالم السفلي، والذي يدرك بالحدس، أو بما هو فوق حسّي، مثل الحاسّة السادسة أو التخاطر أو الإدراك المتفوّق، وغيره من الاصطلاحات التي تشير لنفس الفكرة.

بين الانبثاقات (التجلّيات) الثلاث الأوّلى، أو العالم العلوي وبين الانبثاقات الثلاث السفلى أو العالم السفلي توجد أربع انبثاقات وسطيّة تمثّل الرابط بين العالمين.

هذه الانبثاقات ـ كما قلنا ـ لا توجد عشوائيّة، وإنّما تنتظم في مواقع (وجوديّة) خاصّة ومميّزة لكلّ منها، وتربط بينها روابط خاصة. الروابط هذه والتي تظهر في الصورة على شكل الأربطة بين الكرات (الدور الممثّلة للتجلّيات)، هي تجلّيات للاحّرف العبرية (اثنان وعشرون حرفاً) بحيث إنَّ كلّ حرف يتضمّن السرّ الذي بواسطته يستطيع (العارف) أنْ يتحرّك من انبثاق إلى انبثاق أعلى صعوداً مرّة أخرى إلى (السماء)، حتّى يصل مرّة أخرى إلى الجنّة التي طرد منها أوّل الأمر، بسبب الخطيئة الأصليّة التي ارتكبها.

وتقول الطروحات الغنوصيّة الكبالاستية (وهي أوسع من الطروحات اليهوديّة بكثير، وإن كان الباطن اليهودي يشتهر بها أكثر من غيره) إنَّ هذه الشجرة التي تمثّل الوجود هي النموذج الاوّلي لكلّ شيء، وأنَّ كلّ المخلوقات خلقت وفقاً لنّفس المخطّط هذا، وأنَّ الكون كلّه ما هو إلّا مرآة كبيرة تكسّرت وتشظّت وانتجت مرايا صغيرة. كلّ مرآة منها هي صورة مصغرة، ولكن كاملة بكلّ الخصائص والصفات للصورة الكبرى، أو النموذج الأوّلي للكون،

دراسة ومعرفة ما في الأسفل من شجرة الحياة (وهو الاسم الذي تطلقه الكبالا على كلّ التشكيل الذي تشكّله التجلّيات) سيشير إلى ما في الأعلى، ويكون سبب لفهمه والتعامل معه[1].

ونعتقد أنَّ هذه المقدّمة كافية لما نريد أنَّ نشير اليه في هذا البحث، وهو: أوّلاً: أنَّ فكرة الكون كلّ واحد، وله نموذج كلّي، هي فكرة كبالستيّة استعارتها الماركسيّة أيضاً، وادّعت أنّها فكرة أصيلة. وهي الفكرة الأساسيّة وراء أدعاءهم أنَّ فهم الطبيعة (بوصفها الكون الأصغر، أو المرآة الصغيرة الممثّلة للكون الأكبر، أو المرآة الكبيرة) كافٍ اذا لم يكن هناك إضافات لفهم كلّ الكون والقانون الحاكم عليه، وهو الديالكتيك كما لا يخفى. ولنعيد هنا الفقرة المتعلّقة بها الموضوع، والتي ذكرناها في الاقتباسات «الفهم المادّي للعالم، يعني– بكل بساطة–: فهم الطبيعة كما هي، دون أيّ إضافةٍ غريبةٍ». وهم يقصدون طبعاً الميتافيزيقيا بهذه الاضافة الغريبة.

فهم العالم وقوانينه بواسطة فهم الطبيعة هي من أقدم الأفكار الغنوصيّة (الميتافيزيقية طبعاً)، والتي تعدّ المنطلق الهرمسي الأصلي لكلّ البناء الغنوصي الفوقي في كلّ الثقافات، وهي تتمثّل بالمقولة الأشهر من بين ثمانية مقولات هرمسيّة، تسمّى: القوانين الهرمسيّة، وهي المقولة (كما في الأعلى يكون في الأسفل)، وهي تعني فيما تعني: أنّك يمكن أنْ تفهم ما في الأعلى، وهو عالم السماء المجرّد، والذي تندرج فيه كل القوانين والمفاهيم والمجرّدات المتعالية عن الحسّ والمادّة بدراسة العالم الأسفل وجزئيّاته، وهو الطبيعة طبعاً،

(1) A practical guide to cabalistic symbolism.

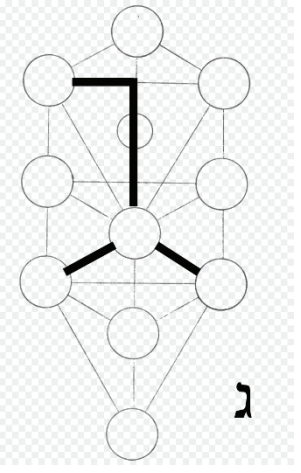

فلاحظ الاقتباس الماركسي الفج[1] .

ونفس الفكرة أيضاً والمتمثّلة بالمقولة الهرمسيّة القديمة (كما في الأعلى يكون في الأسفل، كما في الداخل يكون في الخارج)، فتنطلق الماركسيّة لتقول: إنَّ هناك تطابقاً بين الفكر والكائن، والفكر بالطرح الباطني هو عالم النّفس وكلّ ما يعتملها، وهو لا يكون- بعد ما شرحنا- إلّا (ما في الداخل) والذي تقول الماركسيّة: إنّه يتطابق مع الكائن الذي يمثّل (ما في الخارج) طبعاً، وكلّ هذه الأفكار والرؤى أفكار غنوصيّة ممتازة، بل هي العمود الفقري لكلّ طرح ينطلق من الباطن، أو يشير اليه، فأين مادّيّتهم المزعومة يا ترى؟

يبقى أنْ نشير إلى الفكرة الأوّلى والتي كانت المدخل لكلّ المناقشة اللاحقة، وهي فكرة نفي قانون عدم التناقض، وطرح أنّ التناقض موجود في أصل الأشياء، بل أنَّ التطوّر والتغيّر الكيفي يعتمد أصلا على صراع المتناقضات ـ كما تطرح الماركسيّة ـ وهي فكرة تحتاج إلى شرح آخر في الكبالا نفسها، وهو الآتي:

في الصورة المرّفقة سيكون الانبثاقان اللذان في الأسفل (أسفل الصورة) ممثّلين لجزئي العالم المادّي. الانبثاق الأيسر منهما يمثّل الجزء المدرك بالعقل، والذي على يمينه يمثل الجزء المدرك بالحدس، أو بما هو فوق الحواس. أو هي أي حالة أخرى اجتماعيّة

(1) Alchemy p16-24.

أو طبيعيّة، وفي أيّ مستوى بحيث يكون هناك توازن أو تفاعل بين ضدّين أو نقيضين، بحيث يكون مقدّمة لحدوث حالة أخرى ثالثة ذات صفات مشتقّة من صفات الحالتين السابقتين، أي: نفس الطرح الديالكتيكي سابق الذكر، حالة التوازن أو التفاعل بين الضدّين يمثلها الخطان الأسودان اللذان ينتهيان في كرة وسطيّة تمثّل الحالة الثالثة المتوازنة المتولّدة من تفاعل الأضداد.

المهم هنا هو امتداد الخطّ الغامق الظاهر في الصورة من الانبثاق الوسطي الممثّل لحالة التوازن بين ضدّين، وعبوره منطقة وسطيّة تحتوي على كرة صغيرة أصغر من باقي الكرات، وهذه الكرة الصغيرة هي ما يعرف في الغنوص الكبالاستي بمنطقة الهاوية أو منطقة التحوّل، وهي منطقة (من الوجود) تتحوّل فيها التراكمات الطفيفة إلى تغيّرات كيفيّة[1] [2].

ولفهم هذه النقطة نعطي أمثلة من الخيمياء: لنقل إنَّ خيميائي استطاع أنْ يحوّل الرصاص بعد أنْ أدخله في سلسلة من العمليّات الخيميائيّة إلى ذهب، وهو تحوّل كيفي كما لا يخفى، هذا يعني (من الناحية الغنوصيّة): أنَّ الرصاص كان لابدّ أنّه وصل إلى حالة الاوروبورس، وهي حالة التوازن بين المبدأين، وهي في الكبالا الانبثاق الوسطي الذي يصبّ فيه الخطّان. ثُمَّ بعد ذلك انتقلت (الحالة المتوازنة)، وصعدت من الأدنى إلى الأعلى (وهي هنا مازالت رصاصاً متطوّراً، حدثت فيه تراكمات كمّيّة)، واخترقت

(1) A practical guide to cabalistic symbolism P 101- 112.
(2) The same reference P 137- 148.

منطقة الهاوية التي يحدث فيها التغيّر الكيفي، وهنا تحوّل الرصاص (المتطوّر) إلى ذهب، وفقد خصائصه القديمة وتخلى عنها، وحاز خصائص جديدة تحلّى بها، ليكون بعد ذلك موجوداً آخر متحوّلاً بالكيفية ولا علاقة له بوجوده السابق.

ومثال آخر في عالم الحيوان فإنَّ سلف الانسان كان قد مرّ بعدّة تراكمات كمّيّة في مستوى الجينوم (مجموع ما يملك من الجينات، أو كلّ المادّة الوراثيّة)، وعند تراكم الكثير من هذه التغيّرات الكمّيّة تحدث الطفرة، ويتحوّل هذا السلف الأشبه بالقرد إلى إنسان ليتحلّى بصفات جديدة مختلفة بالكيفيّة عن صفاته القديمة التي تخلّى عنها. ـ ونحن قاصدين أنْ نستخدم مصطلحات مثل التخلّي والتحلّي، لأنّها هي المصطلحات المتداولة في أغلب الطروحات الباطنيّة لا سيّما الصوفيّة ـ هذا الكائن الجديد كان لابدّ أنْ يجتاز مرحلة الهاوية من شجرة الحياة من أجل أنْ يحدث فيها هذا التغيير الكيفي، أو التطوّر بالمفهوم الداروينى في هذا المثال.

ويمكن أنْ تطبق هذه القاعدة على كلّ شيء في هذا الوجود، ومنها: التغيّرات الاجتماعيّة التي تتحدّث عنها الماركسيّة، والتي تبدأ من الديالكتيك وصراع الأضداد، ثُمَّ حالة نفي النفي، وهي حالة مساوقة لحالة التوازن في الكبالا، ثُمَّ الدخول إلى حالة التغيّر الكيفي التي هي اقتباس لمرحلة الدخول إلى منطقة الهاوية في الكبالا، وحدوث التحوّل الكيفي، الذي لا يعدو أنْ يكون مصطلحاً آخرَ لوصف التحوّل الخيميائي الكبالستي.

أخيراً لنتّتبع الخطّ الأسود الصاعد من كرة التوازن مروراً

بالهاوية، ولنجده يدخل إلى انبثاق ظللناه باللون الغامق، والذي قد يكون أهمّ انبثاق من الناحيّة الرمزيّة في كلّ الطروحات الغنوصيّة. وهذا الانبثاق يسمّى (بيناه)، والذي يمكن أن يترجم- عبر معناه ولفظه- إلى مصطلح البين أو الفصل. الانبثاق هذا (بينّاه) هو جذر كلّ يوتوبيا في الفكر الإنساني، ومنها يوتوبيا الأديان والماركسيّة على حدٍّ سواءٍ.

من خصائص هذا الانبثاق أو التجلّي، هو: أنّه ينتمي لانبثاقات السماء من جهة، وهي الانبثاقات الثلاث المتعالية الأوّلى، والتي لا يمكن إدراكها لا بالحسّ، ولا بالعقل، ولا حتّى بالحدس. ولكنّه من جهة أخرى، ولأنّه آخر الثلاثة، فإنّه يمتاز بأنَّ له وجهين يرمز لهما أحياناً بوجهي القمر. الوجه الأوّل: هو الوجه المقابل لما في الأعلى أو للانبثاقين الأوّلين المتعاليين، ولذلك: فهو يأخذ صفاتهما من حيث أنّه لا يمكن إدراكه بتاتاً من قبل الإنسان ويرمز له بوجه القمر المظلم. ولكنّه يقابل ما في الأسفل من الجهة الاخرى، وهي: الانبثاقات السبع الأخرى، وهي كلّها قابلة للادراك، وإنْ كانت بعضها تتعالى على الادراك بالحواس أو حتى بالعقل المجرّد، ولكن يبقى الحدس، وهو: القلب بالمصطلح الديني قابل لإدراكها والتعامل معها، وبذلك يكون الانبثاق بيناه (البين أو الفصل) هو أشبه بالحدّ الفاصل بين السماء والأرض، أو يمكن لنا أن نطلق عليه مصطلح البرزخ. وهو يقابل ما في السماء (ما في الأعلى) ويأخذ صفاته من جهة، ويقابل ما في الأرض (ما في الاسفل) ويأخذ صفاتها من جهة

اخرى[1].

لكـن أهـمّ صفـة مـن صفـات هـذا الموقـع الوجـودي، هـو: أنَّ مـا فوقـه (الجـزء المقابـل للسـماء) لا يتبـع قانون عـدم التناقـض، وأنَّ الاشـياء هنـاك لا يمكـن إدراكها بالقواعـد العقليّة العاديّـة وأنّ) أ) هناك قـد لا تسـاوي (أ) فـي بعض الأحيـان، أو أنَّ (أ) تسـاوي (أ) وتسـاوي (ب) أيضـاً، وإنْ كانـت (ب) لا تسـاوي (أ) الأوّلـى[2].

وهـذا الطـرح لـه أصـول عديدة، وهـو ليس مـن التناقضـات أبداً لمـن اطّلـع علـى أصـول الباطـن والغنـوص. أمّـا مـا يكون أسـفل هذا الانبثـاق فيتّبـع قانـون عـدم التناقـض، أي: أنّـهُ يمكـن التعاطـي معـه بالمنطـق والأدوات العقليّـة المتعارفـة، فلاحـظ كيـف أنَّ فكـرة نفـي قانـون عـدم التناقـض التـي تدّعـي الماركسـيّة أصالتها فيها، هـي فكرة مطروقـة، ومعروفـة فـي الطروحـات الباطنيّـة، وإنْ كانـت غيـر معروفة للجميع .

هـذا الموقـع الوجودي، وبحسـب أغلـب الطروحـات الباطنيّة هو الجنّـة الأوّلـى التـي طـرد منهـا الإنسـان، والتـي لهـا وجهـان (رحماني وشـيطاني في بعـض الطروحات لوجـود إمكانيّة لدخول الشـيطان إليها كمـا فـي القصة الدينيّة المشـهورة عن بداية الخلق)، وهـو غاية الغايات ومعنـى المعانـي، وهـو الهـدف مـن وراء كلّ الأديـان والفلسـفات التي تبشـر بالمدينـة الفاضلـة، أو دولـة نهاية الزمـان، أو المجتمـع المعصوم، بحسـب الإصطلاح الـذي أطلقه الصدر فـي كتابه، ولذلـك فهذا الموقع

(1) A practical guide to cabalistic symbolism P 87-100.

(2) Same reference.

الوجـودي هـو جذر اليوتوبيـا الأوّل بحقّ ـ إذا صـحّ التعبيرـ.

فكرة الرجوع إلى الموقع التشـريفي المتسـامي للإنسـان، ودخوله بوابـة السـماء مـرّة أخـرى هو أكثر فكـرة شـغلت الفكر الانسـاني بكلّ أنواعـه وأطيافـه. كلّ طـرح وكلّ فلسـفة تناولت الموضوع مـن زاويتها، ولكـن الجميـع تشـاركوا فـي فكرة: أنَّ الانسـان يجـب أنْ يعـود، أو أنْ يصـل إلـى مرحلة من مراحـل وجوده، بحيـث يحقّق نوعاً مـن المثاليّة والطوبائيّـة فـي التعاطـي مع نفسـه، ومع الكـون من حوله، فكلّ فلسـفة أو طـرح يقـوم بدغدغـة باطـن وعـي الانسـان بهـذه الجزئيّة ويسـتثير لديـه أمـل العـودة المدفـون فـي أعماقـه سـيجد اسـتجابه مباشـرة من المجتمـع، سـواء كان هـذا الطـرح مادّيّـاً ـ كما تدّعـي الماركسـيّة ـ أو دينيّـاً ـ كمـا في باقـي الطروحـات الأخرى ـ.

وهكـذا نلاحـظ: ـ وبشـكل سـريع ومختصـر جـدّاً ـ كيـف أنَّ الطـرح الماركسـي اليوتوبـي طـرح ميتافيزيقـي بامتياز، لا بـل أنّه مغرق فـي الميتافيزيقيـا، حتى قعرهـا الغنوصي الباطني، وأنَّ الوعي الإنسـاني- بـدون الخـوض فـي تفاصيله- مفطـور ومجبول على فكـرة البحث عن طريـق العـودة إلـى جنتـه الموعودة، وهـي الجنـة الأرضيّـة المتمثّلة في الدولـة الصالحـة والمدينـة الفاضلة، وأنّ باطن وعي الانسـان يسـتجيب مباشـرة لـكلّ طـرح فكـري يتمثّل بهـذه الجزئيّـة، وهنا يتبيـن لنا معنى ثنائيّـة الوعـي والمعنـى التي أشـرنا لهـا في مقدّمـة البحث.

الفينيق وريشاته الثلاث

الوعـي الانسـاني هـو ذلك الفينيـق العظيـم الذي لا يمكـن له إلّا أنْ يقـوم مـن بيـن الرمـاد مـرّة بعـد أخـرى، باحثاً عـن سـندباد جديد، لديـه مـن الجـرأة مـا يكفـي لركوبـه مخاطـراً بحياتـه، بحثـاً عـن قلعة الزمـرد القابعـة خلف صحراء الهوايـة، ذلك الخلاء المهـول الذي طالما امتصـت رمالـه أرواح الفانيـن. كلّ من يدّعي أنّه مرتبـط بالحقيقة، أو أنّه يملـك الوعـي الكافـي لفهم الوجود مختصـراً في قانون أو عـدّة قوانين هـو سـندباد آخـر، علـى الأقلّ مـن وجهـة نظـر الفانتازيا، وهـو أحمق آخـر مـن وجهـة نظـر الكبـالا والباطـن، اللذيـن يأخـذ فيهمـا الأحمق أبعـاداً أخـرى، غيـر الفهـم المعتـاد لـه، وأهمّهـا: مـن يجـازف بتطبيق أحلامـه- أو أوهامـه- عـن فهـم الوجـود فـي سـاحة الصراع الإنسـاني السياسـي أو الاجتماعـي[1]. والماركسـيّة كانـت هـذا الأحمـق الاخيـر الـذي تلبّـس بروح السـندباد، وامتطى أخطر وأقدس مـا يمكن امتطاءه، فينيـق الوعـي، حلّـق بـه عالياً في سـماء الطـرح النظـري الفلسـفي، ثُمَّ لمّـا حـاول اجتيـاز الهاوية، هاويـة التطبيـق الاجتماعي، فكبا بـه فينيقه، وتكسّـرت عظامـه، وامتصـت رمـال الهاوية روحـه ودماءه.

لـن نسـتطرد كثيـراً فـي شـرح معنـى الوعـي وملابسـاته، ونحن فـي خاتمـة البحـث، وقـد نوفّـق إلى ذلـك في بحـوث أخـرى لأهمّيّة الموضـوع، فقـط نشـير إلـى بعـض التعاريـف والشـروح التـي تصـبّ فـي صلـب الموضـوع. الوعي كمفهوم أشـار إليـه العديد من الفلاسـفة والمفكّريـن، وأهمّهـم كانـط وهيجـل اللـذان اسـتخدماه ليـس فقـط

(1) A practical guide to cabalistic symbolism P65-75.

للدلالـة علـى وعـي الـذات، وإنّما على الـذات الواعية نفسـها في مقابل الموضـوع الـذي تكون الـذات واعيـة به[1].

وفـي كتابـات هيجـل يرتبط مفهـوم الوعـي الذاتي دائمـاً بالعقل، وقـد يسـبقه حديـث عـن النّفـس أيضـاً التـي وصلـت لأعلـى أطـوار الإدراك، وهو إدراكها لحالاتها الحسّـيّة، ولكن ليسـت الأشـياء المختلفة عـن ذاتهـا، ولمّـا كان الوعي يسـتلزم موضوعـاً آخر غير ذاتـه (والكلام لهيجـل) فهـو يظهـر فـي الآخـر، وبالتالي يعتمـد على الآخر فـي مقابل النّفـس التـي لـم تحصـل على موضـوع، وفـي مقابـل الـروح أو العقل الـذي يسـتبعد آخرية الموضـوع [2].

المقصـود بالاقتبـاس السـابق: أنَّ الوعـي حالـة خاصّـة جـدّاً من خـواصّ الإدراك فـي الكائنـات المدرِكـة. ويمتـاز الوعـي الانسـاني عـن باقـي أنـواع الإدراك الأخـرى؛ إنـه وعـيٌّ دقيـقٌ وحادٌّ يفصـل بين معرفـة– الواعـي– لنفسـه ومعرفة الأشـياء من حوله من جهـة، ولكنّه لا يصـل إلـى معرفـة نفسـه إلّا بـادراك علاقتها بالأشـياء من حولهـا. وهنا يتكـوّن لدينـا علاقـة عميقـة ثلاثيّـة الأبعـاد بيـن إدراك النّفس لنفسـها، أو الـذات بذاتهـا، وإدراك الـذات للاخـر والوعـي بـه، ومـن ثُـمَّ إدراك علاقـة كلّ منهمـا بالآخـر من جهـة أنَّ أحدهمـا مظهر للآخـر ومائز له. والموضـوع يربطنـا مـرّة أخـرى بالكبالا وبالأخـصّ الانبثاق بينـاه، أو ما اسـميناه البيّـن أو الفصـل، والذي من أهـم خصائصه القـدرة على الفهم والإدراك، بواسـطة عمليـة الفصـل بيـن الاشـياء، أو لنقل وضع الاشـياء

(1) معجم مصطلحات هيجل: 126.

(2) نفس المصدر:127.

(المصاديـق) فـي مجاميـع مميّزة لها (مفاهيـم) من أجل عمليـة إدراكها والوعـي بها[1].

الجـزء الأوّل مـن الإدراك هو إدراك الـذات لذاتهـا، وبأنّها (كيان) ممتـازٌ عمّـا حولهـا، ثُـمَّ الجزء الثانـي هـو إدراك المحيـط والاخر. وهو إدراك يعتمـد غالبـاً علـى الحـسّ المباشـر بالوجـود حول هـذه الذات، والجـزء الثالـث هـو إدراك العلاقـات بيـن هـذه الاشـياء الخارجيّـة بملاحظتهـا ملاحظـة مباشـرة لفتـرات طالـت أو قصـرت، وهـو نـوع الإدراك الـذي يفضـي إلى ما نسـميّه بالقوانين سـواء الطبيعيـة أو غيرها. والتـي تعتمـد علـى المشـاهدة الحسّـيّة أوّلاً، ومن ثُـمَّ انتـزاع المفاهيم. وهـو الجـزء العقلـي مـن الموضـوع ليكـون لدينـا ثـلاث حـالات مـن الإدراك هـي التـي تكـوّن بتفاعلهـا مـا ندعـوه بالوعي.[2]

أمّـا برجسـون الـذي بحـث كثيـراً فـي مواضيـع العقـل والوعي، فقـد خلـص إلى فكـرة أكثر فعاليّـة، إذ إنّه يرجع كلّ شـيء إلـى العقل والغريـزة، وإنْ كان يقسّـم الوعـي بعـد ذلـك إلـى ثـلاث شـعب أيضاً. اسـمعه يقـول: «إنّ العقـل والغريـزة يحتفظـان بأصـل مشـترك، كما أنَّ أحدهمـا لا يوجـد بشـكل نقي عـن الآخر مطلقـاً. فليس هنـاك عقلٌ الّا ونكشـف فيـه آثـار الغريـزة، وليسـت هنـاك غريزة إلّا ومشـوبة بشـيء مـن العقـل». ويقـول فـي فقـرة أخـرى: «إذا قـدّر للوعـي الكامـن فـي الغريـزة أن يسـتيقظ فإنّـه سـيتحوّل إلى معرفـة باطنة بدلاً مـن الخروج إلـى العالـم المـادّي، أي: حـدس يكشـف لنا أسـرار الحيـاة، والحدس

(1) A practical guide to cabalistic symbolism 87-100.

(2) معجم مصطلحات هيجل: 128 .

أعلى أشكال الغريزة»[1] .

أي: أنَّ برجسون يجعل للوعي ثلاث أجزاء كلّها تنبع من الغريزة، أو تتداخل معها، وهي الحسّ العادي، والحدس، والعقل أو التعقّل، وهذا التقسيم هو الأقرب إلى الرمزيّة التي رمزنا بها للوعي بالفينيق وريشاته الثلاث.

كلّ نظريّة معرفيّة بغض النظر عن نوعها سترتكز على وجود الوعي الكامن في الانسان كمصدر لها، أو كمتلّقي يحاول فهمها أو تطبيقها، فالماركسيّة والإسلام بوصفهما الطرحين اللذين تمّت المقارنة بينهما في كتاب اليوم الموعود، هما نوعان من الوعي بطريقة أو بأخرى. الوعي الماركسي الذي استند إلى الحسّ المادّي كمصدر وحيد للمعرفة، وإلى العقل بقدراته التجريديّة كآلة وحيدة للفهم والإدراك، وخرج بذلك باطروحة معرفيّة أعتقد أنّها كافية لتفسير التاريخ والوجود، سقط سريعاً في امتحان التطبيق الاجتماعي والسياسي بسبب أنّه أغفل الريشة الثالثة من ريشات الفينيق، وهو دور الحدس كمفهوم واسع لكلّ ما لا يستطيع الانسان إدراكه بالحواس أو بالتجريد العقلي، والذي يلعب فيه الطرح الديني دوراً كبيراً ومباشراً.

حتّى الرمزيّات الغنوصيّة التي استبطنتها الماركسيّة ـ كما شرحنا ـ والتي كانت القاعدة للطرح الظاهري لهم، لم تُجدِهم نفعاً عند عبورهم هاوية التطبيق الإجتماعي، لعدم مراعاتها للعلاقة التي ذكرها هيجل (وهم دائماً يدّعون الوصل بهيجل) بين وعي الذات

(1) مفهوم العقل في الفكر الفلسفي:184.

بنفسها بوصفها (باطن الوعي)، وبين وعيها بما حولها بوصفه (ظاهر الوعي). وهكذا كان الأمر. فلم يعرف سندباد الماركسيّة كلّ أسرار الفينيق وكيفيّة التحكم بريشاته، فسقط سريعاً فوق رمال هاوية التطبيق، ولم يصل أبداً إلى مدينة الزمرد، وليست الماركسيّة فقط، بل إنّ كلّ الطروحات الأخرى الدينيّة أو غير الدينيّة، كانت قد كبت بها فينيقها قبل كبوة الماركسيّة بكثير، ولنفس الاسباب، فهي إمّا مالت إلى (ريشة) الحدس والغنوص المفرط، أو إنّها تمسكت بريشة العقل المشائي، أو إنّها كانت حسّيّة تجريبة فقط. وكلّ ذلك يعني: السقوط من ظهر الفينيق عاجلاً او اجلاً.

لكن يبدو أنّ هناك (سندباد) آخر قد بلغ من الكبر عتيّاً، لكنّه لم يسقط من فينيقه بعد. هو الآن يحلّق عالياً والرياح تحرّك جدائله البيضاء المنسدله تحت عمامته السوداء العتيقة، فتلوح له من بعيد أسوار مدينة الزمرد وأبراجها المتلألأة ليمسك الريشات الثلاث بقوّة وحذر، بالكاد يوازن نفسه، وتحته تمتد صحراء الهاوية المرعبة، تلك الرمال الساخنة التي ابتلعت أرواح كلّ السابقين.

ربيع مزهر محمود

المصادر

– اصـول الفلسـفة الماركسـيّة تأليـف جـورج بوليتـزر وجـي بيـس وموريـس كافينـز تعريـب شـعبان بـركات. جـزءان فـي مؤلـف واحـد، المكتبـة العصريـة . صيـدا . بيـروت. مهمـل مـن تاريـخ الطبـع.

– الماديّـة التاريخيّـة: فـز كيللـي. م. كوفالسـون. عرّبه: احمـد داوود. اصـدار دار الجماهير، دمشـق 1971.

– الماديّـة الديالكتيكيـة والماديّـة التاريخيّـة، النظرية الفلسـفية العامة لتطـور الكـون والمجتمع. سـتالين. ترجمة: خالد بكداش. منشـورات دار البديع. الطبعـة الثانية. 1959.

– اليـوم الموعـود، بيـن الفكـر المـادي والدينـي. موسـوعة الامـام المهـدي. السـيّد محمّـد الصـدر. هيئـة تـراث السـيّد الشـهيد الصـدر. النجـف الاشـرف. دار ومكتبة البصائـر. 2011 ميلادي. 1432 هجري.

– لودفيـغ فوربـاخ ونهايـة الفلسـفة الكلاسـيكية الالمانيـة. فردريك انجلـز، مـع ملحـق كارل ماركـس. موضوعات عـن فوربـاخ. دار التقدم. موسـكو. 1967.

– معجـم مصطلحـات هيجـل. تأليـف ميخائيل انـوود. تر: امـام عبد الفتـاح امـام. التنوير للطباعـة والنشـر والتوزيع. بيروت- لبنـان. 2011.

– مفهـوم العقل في الفكر الفلسـفي. دكتور ابراهيـم مصطفى ابراهيم. دار النهضـة العربية للطباعة والنشـر. لبنان- بيروتز 1993.

– نصـوص مختـارة، فردريـك انجلـز. اختيـار وتعليـق: جـان كانابا. ترجمـة: وصفـي البني. منشـورات وزارة الثقافـة. مطبعـة وزارة الثقافة – دمشـق- 1972.

– نهـج البلاغـة – خطـب الإمـام علـي عليه السلام – ج ١. –http://shia onlinelibrary.com/

– يوتوبيـا، طومـاس مور. تر: انجيـل بطرس سـمعان. الهيئة المصرية العامـة للكتـاب . الطبعة الثانية 1987.

English References:

–A practical guide to cabalistic symbolism. Gareth Knight. Samuel Weiser INC. York beach. 1975.

–Chinese Alchemy. ISBN 978 Hodder & Stoughton Ltd. London. 2016.

–Rael Alchemy. A primer of practical alchemy. Robert Allen Bartlett. Quinquangle Press. Australia. 2006.

–The complete guide to alchemy. Dennis William Hauk. Penguin group USA. 2011.

–THE SECRET TEACHINGS OF ALL AGES. Manly P. Hall. SAN FRANCISCO PRINTED FOR MANLY P. HALL. BY H.S. CROCKER COMPANY, INCORPORATED. MCMXXVIII. 1928.